أولاد الناس بمجتمع عصر سلاطين المماليك

الملف

Respectable People In The Society of Mamluk Sultans Era

د.نهلة أنيس محمد مصطفى

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

كلية الدراسات الإنسانية – جامعة الأزهر

القاهرة – جمهورية مصر العربية

dr_na_mostfa@hotmail.com

الحياة الدينية والعلمية لأولاد الناس

▪ **الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

نهلة أنيس محمد مصطفى ، أولاد الناس في مجتمع عصر سلاطين المماليك: الحياة الدينية والعلمية لأولاد الناس.- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن ؛ يونيو ٢٠١٠. ص ٩٠ – ١٠١. (www.historicalkan.co.nr)

تمهيد

حظيت مصر في عصر سلاطين المماليك بأهمية دينية خاصة ، ونشاط علمي كبير فقد قصدها العلماء والطلاب من مختلف البلدان الإسلامية من المحيط الأطلسي حتى بلاد الهند والصين ، وقد ساعد وجود الخلافة العباسية وإحيائها مرة أخرى في القاهرة على إذكاء الأهمية الدينية لمصر في ذلك الوقت ، وكذلك أصبحت باعثا أساسيا لتدفق العلماء عليها من كل حدب وصوب

ومن الأسباب الهامة التي ساعدت على النشاط الديني والنهضة العلمية في مصر رعاية السلاطين والأمراء المماليك للفقهاء والعلماء وتبجيلهم واحترامهم ، فكانوا يحرصون على مجالستهم ، ومنهم من كان يميل إلى التاريخ وأهله ويعتبر أن سماع التاريخ من أعظم التجارب. ومنهم من كان يحرص على عقد مجالس كل أسبوع يتدارس فيها مع العلماء والفقهاء في مختلف المسائل العلمية والدينية.

ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من الأمراء المماليك وأبنائهم (أولاد الناس) قد اشتغلوا بالعلم ومدارسته والإقبال عليه ، وبرع الكثير من أولاد الناس في مختلف فنون العلم والأدب والعلم الشرعي ، وجلس العديد منهم لتعليم الطلاب والتدريس في مدارس القاهرة المختلفة وبرعوا أيضاً في مجالات العلوم الشرعية والعلمية مثل الفقه والحديث واللغة والتاريخ.

هذا وبالرغم من أن الأمراء المماليك ليسوا مصريين في الأصل ولغتهم الأصلية ليست العربية ، إلا أن تواجدهم في مصر وبلاد الإسلام وإسلامهم المبكر ومنذ أن كانوا أرقاء في الطباق قد جعلهم حريصين كل الحرص على التربية الصحيحة لأبنائهم حتى غدا أبناؤهم يكونون فئة أساسية من فئات المجتمع المصري تتسم بسمات إسلامية أساسية في الدين واللغة والتاريخ المشترك مع بقية طبقات المجتمع ، وأخذ هؤلاء أولاد الناس يتجاوبون مع كافة معطيات المجتمع المصري وقد حرص آباؤهم على أن يكتسب أبناؤهم السمت الإسلامي الصحيح ، وأهم المظاهر الدالة على ذلك تسمية أبنائهم بأسماء إسلامية ، فمن خلال مدارسة مصادر التراجم والحوليات لم نجد إلا القليل النادر من أولاد الناس الذين تسموا بأسماء تركية أو جاركسية ، وجملة من جاء بين طيات هذه المصادر من أولاد الناس يحملون أسماء إسلامية ، والشاهد على ذلك هو أسماء السلاطين الذين قلدوا السلطنة أمثال الناصر محمد بن قلاوون وكافة أبنائه وأحفاده الذين قلدوا السلطنة وغيرهم من سلاطين العصر المملوكي.

ولعلنا هنا لابد أن ندحض ما جاء عند بعض المؤرخين الغربيين من أن السلاطين والأمراء المماليك لم يرعوا أولاد الناس الذين تسموا بأسماء إسلامية وخاصة أسماء الصحابة والأنبياء وهذا مما يثير الدهشة لأن هؤلاء لم يدركوا أن أسماء أولاد الناس - غالبيتهم تقريباً - لا تخرج عن كونها إما أسماء صحابة أو أنبياء ، وهؤلاء قد وصلوا إلى مراتب سامية في الدولة المملوكية لا كما يشير هؤلاء إلى أن بعض السلاطين رفضوا النفقة على أولاد الناس الذين يحملون أسماء إسلامية في حين أن أولاد الناس كانوا من أهم الفئات التي تشكل طبقة المماليك ويحملون أسماء إسلامية.

وإن كان طافور قد أطلق على أولاد الناس "بمكثري شرع محمد" صلى الله عليه وسلم ، وكما يقول أن أولاد المماليك الذين يولدون أحراراً فيصبحوا مسلمين أحراراً كل ذلك بغية زيادة عدد المسلمين ، ولعلنا ندرك أن طافوراً نظر إلى أولاد الناس نظرة ضيقة جداً ، وخاصة أنه قد لمّح إلى أن آباءهم قد جلب بعضهم من البحر الأسود ومن جميع الأماكن التي يبيعهم فيها المسيحيون فهو يرى أن بعض هؤلاء بيع من قبل المسيحين –وربما ظن أنه كان الأولى للمسيحيين الاستفادة منهم- ونسي أو تناسى أن هؤلاء المماليك جاءوا إلى مصر صغاراً وتربوا تربية إسلامية صحيحة ، وعاشوا في قلب المجتمع المصري ، وتزاوجوا وأنجبوا أولادهم وهم مسلمون ، وبالنظر إلى نسبتهم في المجتمع المصري بل والإسلامي بوجه عام نرى أنهم لا يشكلون نسبة عالية ، بل العكس فلا سبيل لأن يكونوا مكثري شرع محمد كما زعم ، وإلا كان الأتراك والجراكسة في وسط آسيا وفي الأناضول أيضا من مكثري شرع محمد ، بل هؤلاء المماليك وأولادهم أصبحوا مسلمين وكما سنرى جزءاً لا يتجزأ من المجتمع المصري.

وإذا أمعنا النظر في تاريخ دولة المماليك لوجدنا أن أولاد الناس قد ساهموا بشكل واضح في مسيرة الحياة الدينية والعلمية في مصر خلال العصر المملوكي منذ نعومة أظفارهم وتلقيهم العلم في الكتاتيب والمدارس ، إلى أن حمل الكثير منهم مشعل العلم وقاموا بالتدريس كما أشرنا في مدارس القاهرة ، والأمثلة على ذلك كثيرة نحاول تسليط الضوء عليها خلال الصفحات التالية لنرى دور أولاد الناس في الحياة الدينية والعلمية ومشاركتهم لبقية طبقات المجتمع المصري المملوكي

رحلات الحج

الحج ركن من أركان الإسلام الحنيف وقد فرضه الله سبحانه وتعالى فقال جل وعلا "فِيهِ ءَايَتٌ بَيِّنَتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنَاً وَلِلَّهِ عَلَى النَاسِ حِجُّ البَيْتَ مَنْ إِسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاًّ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ العَالَمِينَ" وجاء في حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم "بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهَ وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ ، وإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانْ" وقد أوجبه الفقهاء بشروط ضرورية وهي الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والإستطاعة ، وفضل الحج والعمرة ومكانتهما كبيرة في الإسلام ، فالحج امتثال لشرع الله واستجابة لأمره سبحانه ، ومن هنا وجبت المبادرة إلى الحج إذا تحققت شروطه. وقد شارك أولاد الناس في إقامة هذا الركن الأساسي وفي كثير من الأحيان التي كانت تدور في رحلات الحج وركب الحج المصري الذي كان يخرج من القاهرة إلى بلاد الحجاز ، وأيضا حرصهم الشديد رجالاً ونساءً على تأدية فريضة الحج.

تقلد أولاد الناس إمرة الحج.

تقلد أولاد الناس إمرة ركب الحج وخاصة ركب الحج الأول ، وفي العادة كان أمير ركب الحج يكون أمير مئة ومقدم ألف ، أما أمير الركب الأول فمن الممكن أن يكون أمير طبلخاناة ، وخلال العصر المملوكي الأول ، قلد عدد قليل من أولاد الناس إمرة ركب المحمل أولهم الأمير المجاهد آ صرغتمر بن الملك العادل كتبغا عام ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٤م وقيل في إمرته للحج أنه أغدق العطايا لأهل مكة فأعطى الشريف أبو نمي صاحب مكة عشرين ألف درهم ، وأنعم على أولاده بعشرة آلاف ، وطوال طريق الحج كان يقيم الموائد والأسمطة لركب الحجيج وتوزيع الحلوى والسكر ، وخلع العطايا على كل الأمراء والمماليك والجند وسائر من صحبه في رحلته.

ومن الجدير بالذكر أن إمرة الأمير آنص كانت في عهد والده العادل زين الدين كتبغا. الأمير سيف الدين أبو بكر بن سنقر الذي ولي إمرة الحاج بعد وفاة خاله الأمير بهادر عام ٧٠٧ هـ/ ١٣٠٤ م وقد قلدوا إمرة

الحاج المصري مرات عديدة ومنهما في عام ٧٩١هـ/١٣٨٨م ، وكان هذا الأمير يستطيع معاملة العربان في طريق الحج وسياستهم بالترهيب تارة والإحسان تارة أخرى ، حتى استطاع السيطرة على طريق الحج طوال فترات إمرته على ركب الحجيج.

وفي عام ٨٤٠هـ/١٤٣٦م كان ركب الحج المصري ثلاثة ركوب وظن الناس في البداية وعند المناداة على ركب الحج أن الحاج قليل ولكن اجتمع في بركة الجب (الحاج) خلائق كثيرة فجاء الركب على ثلاثة ركوب تأمر على الأول ناصر الدين محمد بن الأمير أركماس الدوادار ، وكان أمير الحج الامير غرس الدين خليل بن شاهين (المؤرخ) فقد خلعت عليه الوزارة مع إمرة الحج بعد خلعه من نيابة الإسكندرية ، وكلٍ من أمير الحج وأمير الركب الأول من أولاد الناس.

وفي عام ٨٦٨هـ/١٤٦٣م أُمرّ المقر الشهابي أحمد بن العيني على إمرة الحاج والأمير الشرفي يحي بن يشبك الفقيه أمير الركب الأول ، وصحب هذا الركب جملة كثيرة من أكابر الأمراء والأعيان وفي عام ٨٩٧هـ/١٤٩١م تولى الأمير محمد بن الأمير أيتمش والذي يقال له جُمُق إمرة الحاج وكان يوم خروجه "يوماً مشهوداً ، وخرج الأمير ناصر الدين محمد بن الأتابك أزبك من ططخ على إمرة الركب الأول عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م وكان أمير الحاج الأمير قانصوه خمسمائة وفي عام ٨٩٩هـ/١٤٩٣م استقر الأمير ناصر الدين محمد بن علاء الدين علي بن خاص بك في إمرة الركب الأول في عهد الأشرف قايتباي ، وقلد كذلك إمرة الركب الأول عام ٩٠٤هـ/١٤٩٨م.

وتولى إمرة الركب الأول من أولاد الناس في عهد الأشرف قانصوه الغوري الأمير الركن عمر بن الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق في عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م على تضرر منه لأنه كان فقيرا ولا يتحمل تبعات الركب والنفقة عليه ، غير أنه لم ينظر إلى حاله ونفذ أمر السلطان وخرج بالركب. وأخر من قلد ركب الحج الأول في الدولة المملوكية كان من أولاد الناس وهو الأمير المقر العلاء علي ابن الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال العلائي ويبدو أن الأشرف قانصوه الغوري أراد إشراك هؤلاء (الأسياد) في إمرة الحج للإنفاق على ركب الحج من أموالهم فنراه يولي ابن المنصور عثمان وابن المؤيد أحمد بن إينال.

وكان يخرج مع ركب الحج جملة باشات وهؤلاء هم الذين يسوقون المحمل وكان منهم أبو المحاسن يوسف بن تغري عام ٨٤٩هـ/١٤٤٥م باشا في ركب المحمل ، أما الأمير على باي الأشرفي فكان باشا في الركب الأول وقد ساق الأمير يحي بن يشبك المحمل عدة سنوات مع الباشات ، وفي عام ٨٥١هـ/١٤٤٧م خرج الناصري محمد بن السلطان جقمق مثل الميسرة في ركب الحج .

ويعد يوم الاحتفال بدوران المحمل من الأيام المشهورة في مصر وهو من أجل الاحتفالات التي ينتظرها الناس بالمجتمع من العام إلى العام ، وقبل دورانه بثلاثة أيام ينادي بتزيين شوارع القاهرة وأزقتها وحوانيتها حتى البيوت من الداخل والخارج. وعادة يكون دوران المحمل في السنة مرتين الأولى في النصف الثاني من شهر رجب على أن يدار المحمل يوم الإثنين أو الخميس فقط ، ودورانه الثاني في النصف الثاني من شهر شوال ويخرج بعدها إلى بركة الحاج ، فيركب القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب وناظر الكسوة ، ويركب معهم أعلام الفقهاء وأعيان الرؤساء وأرباب الدولة ويقصدون جميعاً باب القلعة.

ولكي نرسم صورة أوضح لهذا الاحتفال نرصد موكب الشهابي أحمد ابن السلطان إينال العلائي عندما خرج على إمرة الحاج المصري عام ٨٦١هـ/١٤٥٦م حيث خرج من داره على النُجُب وهذه كانت عادة أمراء الحج ، حيث خرج من الصليبة وشق الرميلة وبين يديه هجانة السلطان أمراء العرب بالأكوار الذهب والكنابيش المغطاة بالأطلس الاصفر ، وركب معه جماعة من الأمراء ، وسار ابن السلطان في موكبه من تحت القلعة إلى جهة خليج الزعفران. خارج القاهرة وظل هناك حتى صلاة العشاء ثم عاد إلى الرميلة في زيه البهيج إلى الغاية ، صورة رسمها لنا أبو المحاسن لنرى مدى ما كان يمثله أمير ركب الحاج من أهمية وخاصة إذا كان ابن السلطان.

ولعله من الممكن القول أن أمير الركب كان يتحمل كثيراً من الأعباء المالية التي كان يفرضها عليه السلطان عند خروجه بالمحمل ، أدركنا ذلك من شكاية الأمير عمر بن المنصور عثمان بأن حاله لا يتحمل نفقة السفر والمحمل لفقره ، وفضلاً عن أمر السلطان للأمير محمد بن علاء الدين علي بن خاص بك بأن يتحمل نفقة المحمل كاملة ومن الجائز أن إمرة الركب كانت في بعض الأحيان تعتبر إلى حد ما عقاب من السلطان لأمير الركب.

خروج أولاد الناس لأداء الحج.

حرص أولاد الناس على الخروج لأداء فريضة الحج ، وإن كانت هذه الفريضة واجبة الأداء على كل من توفرت فيه شروطها من كافة المسلمين ، إلا أننا نود سوق طرف من أخبار أولاد الناس وخروجهم إلى الحج ورغبتهم الملحة والأكيدة في أداء الفريضة ، وإن كان هذا ناتج عن شئ فإنما نتج عن كونهم بالفعل ولدوا مسلمين أحراراً من آبائهم المماليك وتربوا على حب الإسلام وفروضه وواجباته ، ولسنا هنا بصدد حصر أولاد الناس الذين خرجوا للحج مع ركب المحمل ولا من قبيل إجراء إحصائية عنهم ، ولا يمكن لنا إجراء مثل هذا الحصر والإحصائية لأننا لم نجد في طيات المصادر إلا ذكر من اشتهر من أولاد الناس وسطرت أخبارهم في المصادر ، ولعلنا نضرب بذكرهم مثالا على مراعاة أولاد الناس واهتمامهم بأداء الحج والخروج في ركب الحجيج ، وربما مجاورة بعضهم في بلاد الحجاز عدة سنين وذلك حرصاً منهم على التقرب لله سبحانه وتعالى والعبادة وطلب العلم ، ولم يكن هذا قصراً على الرجال من أولاد الناس دون النساء ، فقد شاركت الخوندات من بنات الأمراء المماليك في الحج والمجاورة وكان لهن تواجد ملحوظ في هذه الرحلات التي تشد الرحال فيها إلى الأماكن المقدسة في أرض الله المباركة بلاد الحجاز ، وهذا به دلالة واضحة على ارتباط أولاد الناس بحياة دينية تنبعث من صميم إسلامهم الحنيف.

ومن جملة الأمثلة على أولاد الناس من الرجال الذين حرصوا على حج بيت الله الحرام الأمير أحمد بن بكتمر الساقي والذي خرج في صحبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٣٣هـ/١٣٣٢م ، وقد توفي في أثناء عودته من الحج في شهر الله المحرم ومن أشهر أمراء العصر المملوكي الأول الذي طبق الدنيا خلف ظهره وترك الإمرة والنيابة بعد أن وصل إلى أرقى المناصب في الدولة ، الأمير أحمد بن آل ملك الجوكندار ، حيث عاش زاهداً "وحج كثيراً وجاور" في مكة المكرمة ثم عاد إلى مصر وتوفي عام ٧٩٣هـ/١٣٩٠م.

وفي دولة المماليك الجراكسة كان خروج العديد من أولاد الناس في ركب الحج المصري ولعل أشهر من خرج منهم هو المقر الشهابي أحمد بن إينال في عام ٨٦١هـ/١٤٥٦م عندما قلد إمرة الحج وصحب

معه إخوانه ووالدته خوند زينب "وخرجوا في تجمل زائد" مع ركب الحج وأيضا الأمير غرس الدين خليل بن الناصر فرج بن برقوق حيث كان محبوساً بثغر الإسكندرية وأرسل في طلب الإذن من السلطان الظاهر جقمق لأداء فريضة الحج ، وخرج إلى الحج في صحبة محمل الحج في عام ٨٥٦هـ/١٤٥٢م وكذلك المنصور عثمان بن جقمق والذي استأذن من السلطان الاشرف قايتباي في الخروج للحج فأذن له السلطان واستقبله في القاهرة استقبالاً حسناً وخلع عليه وخرج في حج عام ٨٧٤هـ/١٤٦٩م ومن أولاد الناس أيضا ركن الدين بيبرس بن العلاء علي بن محمد سبط الأمير بيبرس الكبير ابن أخت السلطان برقوق ، وكان خروجه بصحبة والدته عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م وتكرر حجه مع والدته أيضا عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢ وجاور السنة التالية عليها عام ٨٩٩هـ/١٤٩٣م وكانت سيرته طيبة وأيضا الأمير منصور بن السلطان الظاهر خشقدم الذي خرج صحبة ركب الحج عام ٨٨٩هـ/١٤٨٤م وكان مع زوج أمه الأمير برسباي العلائي.

هذا ومن مواكب الحج التي حازت اهتمام المؤرخين ركب الحج الذي خرج فيه ابن السلطان الاشرف قانصوه الغوري عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م الأمير الناصري محمد بن قانصوه وكان أمير ركب الحج الأول الأمير ركن الدين عمر بن المنصور عثمان ، ووصل من اهتمام السلطان بأمر الركب خروجه إلى بركة الحاج وإشرافه على نصب الوطاق. لأمراء الحج واختار لابنه وطاقا بين وطاق كاتب السر محمود بن أجا ووطاق الأمير طقطباي أمير الركب ، ووصف لنا ابن إياس يوم خروج المحمل فكان يوماً مشهوداً "لم يقع

مثله قط فيما تقدم من السنين الماضية" فقد خرج فيه أربعة أطلاب حافلة الأول طلب جاني بك قرا باش المجاورين ، ثم طلب الأمير علي بن المنصور عثمان أمير الركب الأول ، ثم طلب المقر الناصري محمد بن السلطان الأشرف وخرج أمامه طبلين وزمرين وصناجق سلطانية "وغير ذلك مما يحير الأبصار" أما محفة زوج السلطان فكانت غاية في الحسن قيل أن مصروف هذه المحفة فوق العشرين ألف دينار وبلغ طلب ابن السلطان ووالدته ألف جمل ما بين زاد وقرب ماء "وغير ذلك من اليرق الحافل" ، ثم جاء طلب الأمير طقطباي أمير ركب المحمل وكان غاية في الحسن ، وهذه الصورة التي قدمها لنا ابن إياس تظهر مدى ما كان يصل إليه الحد في الترف الزائد إذا خرج أحد أفراد عائلة السلطان إلى بلاد الحجاز وكيف أن الأمراء والأعيان يتسابقون في الخروج ضمن ركب ابن السلطان أو السلطان لأداء الفريضة.

وعلى الجانب الآخر فقد خرجت الخوندات بنات الأمراء إلى بلاد الحجاز لأداء الفريضة ، عدد منهن السخاوي عدد لا بأس به فذكرهن على سبيل المثال لا الحصر ، فاطمة ابنة طيبغا البدري فقد حجت هي وابنتها صحبة ابن خالتها كمال الدين بن البارزي ، وفاطمة ابنة قانباي العمري حجت مع ابنها وزوجها وتكررت حجاتها ومجاوراتها بمكة المكرمة ، وكذلك حجت خوند فاطمة ابنة الظاهر جقمق مع زوجها ، وحجت فاطمة ابنة إينال الأحمدي أكثر من مرة أخرها بعد وفاة زوجها الأمير يشبك من مهدي الدوادار الكبير ، وكذلك خوند آسية ابنة المؤيد شيخ المحمودي ، قد سافرت إلى الحج مع زوجها الأمير يشبك الفقيه ، وذهبت للحج بعد وفاته مرة أخرى وجاورت هناك ، أما خديجة ابنة الأمير بسيري فقد خرجت لأداء الفريضة مع زوجها سعد الدين إبراهيم بن المُرة ناظر جدة وفي عام ٨٠٥هـ/١٤٠٢م حجت خوند أخت السلطان الملك الظاهر برقوق والدة الأمير الكبير بيبرس.

وكان الحجاج أحيانا يخرجون للزيارة في شهر رجب وهؤلاء يطلق عليهم الحجاج الرجبية وركب الرجبية غير أن هذه الرحلة لم تكن منتظمة كل عام ، وربما انقطعت لسنوات وسنوات ، وذُكر أن بعض أولاد الناس قد خرجوا مع حج الرجبية لدفع أذى عرب قبيلة بلى المفسدين في طريق الحجاز ، فتوجه الأمير علي بن إينال أمير شكار لهذا الغرض صحبة ركب الرجبية عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م.

وشارك أولاد الناس في أعمال معمارية للحرم الشريف فقد كلف السلطان الأشرف شعبان الأمير علاء الدين بن كلفت بالتوجه إلى مكة المكرمة ، وعمارة مئذنة باب الحَزْورَة ، فأقام هذا الأمير بمكة فترة طويلة بعد عودة الحجاج من الحج وبعد الانتهاء مما كلف به عاد إلى القاهرة. ونذرت خوند عائشة أخت الظاهر برقوق في محنته أثناء فتنة الناصري ومنطاش بتجهيز كسوة للحجرة النبوية الشريفة ، وبعد عودة السلطان وفي عام ٧٩٢هـ/١٣٨٩م خرجت في موكب الحج وحملت "كسوة جليلة للحجرة الشريفة وستارة زركش لباب الحجرة الشريفة" وكان أمير ركب الحج الأمير عبد الرحمن بن منكلي بُغا.

وعلى الجانب الآخر ربما اشتكى الحجاج من سوء سيرة بعض أمراء الركب ، ففي عام ٧٩٢هـ/١٣٨٩م أصاب الحجاج كثير من المشقة نظراً لسوء سيرة الأمير عبد الرحمن بن منكلي بُغا الشمسي فيهم وفساده وتطاوله على حجاج الركب ، وما أصاب الجمال من وباء في أثناء عودتهم.

أولاد الناس وطلب العلم الشرعي

لم يكن طلب العلم الشرعي جديداً على طبقة المماليك بشكل عام ولا على أ ولادهم ، بل كان طلبهم للعلم وللقراءة والكتابة وحفظ القرآن ومدارسة الفقه ، يتدربون على ذلك منذ قدومهم إلى مصر وهم صغار السن ، فقد حرص السلاطين على رعاية مماليكهم وتعليمهم القراءة والكتابة وطرف من العلم الشرعي في الفقه والحديث والقرآن الكريم وشعائر الصلاة ، مع إجادة فنون الحرب والرمي والسهام ولعب الرمح وقد اصطلح على تسمية أول ما يبدأ به المملوك في تعليمه برسم الكتابية ، وإن جاز فالمقصود به تعليم المماليك ، وهذا راجع لأن أكثر مشتروات هذا العصر من المماليك كانوا صغار السن ولذلك أطلق عليهم المماليك الكتابية فكان المملوك يبدأ بحفظ أجزاء من القرآن الكريم ، وجعل لكل طائفة فقيه يحضر إليها كل يوم ويقوم بتعليمهم القرآن والخط وأداب الشريعة والصلوات والأذكار ، فإذا بلغ مبلغاً من العمر أخذ في تعليمه أنواع الحرب والرمي بالسهام ولعب الرمح ، وينتقل بعد تدريبه وتمرينه وعتقه إلى الخدمة ، وينتقل بها رتبة بعد رتبة حتى يصبح من الأمراء ، وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه ، وربما جنح بعض المماليك إلى الدراسات الفقهية وغيرها من الدراسات العربية أو المدنية ، فيصبح منهم "فقيه عارف ، أو أديب شاعر ، أو حاسب ماهر".

برز العديد من أولاد الناس الذين سلكوا طريق العلم واتخذوه منهاج حياتهم ، وكرسوا له وقتهم ، وخاصة إذا توفرت لديهم عدة أسباب جعلتهم ينتهجوا هذا النهج منها أحوالهم المادية الميسرة التي وفرت لهم سبل العيش وكفتهم مشقة ومؤونة البحث عن لقمة العيش ، وكذلك محبتهم للعلم ورغبتهم في الاستذادة من تحصيله ، وطلب العلم الشرعي يعتبر من أهم ما بدأ به طلاب العلم حيث تستقيم به

حياتهم الإسلامية ويتعرفون من خلاله على أمور دينهم ، وقد أجاد كثير من أولاد الناس في علوم شرعية متعددة ، وأصبحوا على قدر كبير في معرفة علوم الفقه والحديث والتفسير وعلوم اللغة وغيرها ونرصد من خلال هذه الصفحات بعض هؤلاء الذين انتهجوا هذا الطريق وأجادوا فيه وأصبحت تراجمهم تسطر بالمصادر المملوكية.

ومن أولاد السلاطين الذين عنوا عناية خاصة بالعلم وأهله الأمير ناصر الدين محمد بن الظاهر جقمق ، دأب على محبة العلم وأهله مقربا لهم راجيا صحبتهم عن غيرهم ، ودرس غالب العلوم في الفقه والفرائض والتفسير والحديث وعلم المنطق ودرس علوم اللغة العربية حتى صار من نوابغ الفضلاء وعندما تولى أبوه السلطنة راج أمره وأصبح كثير من العلماء والفقهاء من خاصة جلسائه "وزاد في طلبه للعلم حتى كانت غالب أوقاته مصروفة فيه" فكان مجلسه لا يخلو من أفاضل العلماء والفقهاء من مشايخ الإسلام مثل قاضي القضاة الشافعي شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ، وقاضي قضاة الحنفية سعد الدين الديري وكان كل من العلامة شمس الدين الكافيجي الحنفي والعلامة قاسم الحنفي يلازمانه غالب الأوقات وغيرهم من الطلبة والأعيان وهكذا "كان له صيت عظيم وحرمة عظيمة يتردد إليه الناس"و"يجتمع عليه أهل المملكة وأهل العلم وأهل الصلاح وأهل الفضل ، وأهل الأدب ، فإنه جمع بين ما ذكرنا".

واعتبر الأمير شهاب الدين أحمد بن الأشرف برسباي من الأسياد الذين تلقوا العلم وطلبوه ، وخاصة أنه ولد بعد وفاة أبيه فقام زوج أمه الأمير قرقماش الأشرفي برعايته وتربيته ، وأحضر له من علمه القرآن الكريم وأقرأه العلم ، وكان يكتب الخط المنسوب ، غير أنه لم يكن يخرج من بيته متباعدا عن الناس وذلك لأمور سياسية. أما الأمير أمير حاج عمر بن المنصور عثمان بن الظاهر جقمق وهو أكبر أبناء أبيه ، فقد تلقى العلم منذ صغره وحفظ القرآن الكريم ، واهتم بحفظ النقابة والألفية وكان ملازماً للحفظ على عهد السخاوي حين ضم ترجمته إلى كتابه.

ومن الأمراء أولاد الناس الذين تقلدوا مناصب في الإدارة المملوكية ، ورغم متطلبات وظائفهم إلا أنهم حرصوا على تلقي العلم والاستذادة منه ، نذكر منهم عدة من الأمراء على سبيل المثال لا الحصر ، مثل الأمير ناصر الدين محمد بن طرنطاي الذي درس علوم الحديث والفقه وأجازه بعض علماء مصر مثل الدمياطي والأبرقوهي ، وقام بإلقاء دروس في الحديث وتوفي عام ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م.

ومن أولاد الناس الشهابي أحمد بن الأمير تاني بك والذي كرس حياته طالباً للعلم مستصحباً لأهله ، فقد كان من جملة شيوخه الزين عبد الغني الأشليمي ، وأحب علم الحديث وأخذه عن جملة من مشايخ عصره منهم السخاوي وقرأ عليه التقريب التقريب وشرح النخبة ، ومن شيوخه أيضاً الشادي البخاري وفي الفقه الصلاح الطرابلسي ، وحج وجاور عامين وتردد فيهما على السخاوي في أثناء مجاورته بمكة وعلى الجملة فهو ممن اتخذ العلم طريقا وسار في دربه ونهل من علوم ومعارف علماء وشيوخ ذلك العصر.

وعلى الصعيد الأشمل حيث بقية فئة أولاد الناس وجدنا العديد منهم قد نهجوا طريق العلم ، وبرعوا في علوم شتى من العلوم الشرعية والعلمية ، منهم خليل بن كيكلدي العلائي الذي طلب علم الحديث فسمع صحيح مسلم علي شرف الدين الفزاري وصحيح البخاري علي ابن مشرف ، وطلب الفقه وعلوم اللغة العربية ، أما خليل ابن طرنطاي العادلي ، فسمع الحديث من ابن الشحنة وست الوزراء ، وقد حدث بمصر مراراً. أما أبناء كشتغدي بن عبد الله المعزي فقد برز منهم أكثر من واحد في علوم شرعية شتى ، منهم محمد بن كشتغدي والذي سمع العلوم الشرعية من عدة مشايخ وحدث بما سمع بيد أنه توفي مبكراً في عام ٧٢٩هـ/١٣٢٨م وأخوه أحمد بن كشتغدي تتلمذ على جملة من العلماء والفقهاء منهم أحمد بن عبد الله بن النحاس والمعين أحمد بن علي الدمشقي ، والنجيب التنيسي ، وأبي حامد الصايوني وغيرهم ، "وكان صحح السماع نجيب في تلقي العلم" وكان من أجناد الحلقة وجمع حوله عدد من طلبة العلم.

ومن أولاد الناس أيضاً ناصر الدين محمد بن أزبك البدري درس عدة علوم منها الفقه الحنفي والمغازي وكتب بخطه جزءاً كبيراً من المغازي ونسخ تفسير الفخر الرازي مرتين ، وكان من شيوخه محمد بن عبد المؤمن المنصوري ، وذكر ابن حجر وفاته فضلاً عن جعفر بن الكوك عام ٨٠٦هـ/١٤٠٣م. ولازم ناصر الدين محمد بن طيبغا التنكزي مشايخ العلم مثل شهاب الدين بن الحباب ، وحفظ الحاوي وكان يقرأ البخاري ويقوم بشرح بعض الأحاديث عند قراءته ، وجمع بعض علوم الفقه والحديث والتفسير ، وكان زين الدين تغري برمش بن يوسف بن عبد الله التركماني من الحنفية ، مع محبته لأهل الحديث قرأ على الجلال القباني ، وكان شديد التعصب للحنفية وأهل السنة ، ويحط من قدر متصوفي الفلاسفة وخاصة ابن العربي وتقرب من المؤيد شيخ بعد سلطنته وجاور بمكة منذ عام ٨١٧هـ/١٤١٤م حتى توفي عام ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م أما ناصر الدين محمد بن بكتمر القبيباني الحنفي فقد حفظ القرآن الكريم وواظب على حضور دروس الشيخونية

وقد ذكر ابن إياس عدد من أولاد الناس وصفهم بقوله وله "اشتغال بالعلم على مذهب أبي حنيفة" أو قوله "وكان عالماً فاضلاً من أعيان أولاد الناس"أو قوله "من أعيان الحنفية" وأيضاً "واشتغل بالعلم على مذهب الحنفية" ومن هؤلاء الزيني خضر بن سنان النوروزي الجركسي كان رئيساً حشما من أعيان أولاد الناس والشيخ نظام الدين محمد بن الحي بغا الحنفي التركي ، والشيخ شمس الدين محمد الكماجي بن حسين بن قطلو بك الحنفي ، والناصري محمد بن أيتمش وغيرهم.

وقد ذكر السخاوي جملة من أولاد الناس تلقوا العلم على يديه وعلى أيدي علماء آخرين ، وكانوا على قيد الحياة حين ترجم لهم ، منهم ناصر الدين محمد بن شاذي حجا المحمدي ، درس في علوم كثيرة فحفظ القرآن الكريم وطلب النحو والفقه عند شمس الدين بن خلف الحنفي ، وابن الديري والأقصرائي وغيرهم ، وصار من المولعين بالأدب وفنونه ، فمدح الأكابر وجالسهم مثل ابن البارزي وابن مزهر وأيضا الزيني خضر بن شومان النوروزي الحنفي ، حفظ القرآن الكريم منذ صغره ، ودرس العربية وعلومها من صرف ونحو وأجاد في شروح الإرشاد في النحو ، وكذلك طلب الفقه الحنفي والزين مصطفى بن تقطمر والذي درس صحيح البخاري على النجم بن رزين بمدرسة الجاوي وعلى شيخ الألجهية.

وذكر ابن حجر أحد أولاد الناس ، ولقبه بالحافظ وهو محمد بن علي بن أيبك السروجي أبو عبد الله ، عني بالرواية فسمع الكثير من محدثي الديار المصرية مثل الدبوسي وابن المصري ولازم ابن سيد الناس وغيره حتى مهر وبلغ غاية كبرى في الحفظ ، واشتهر بسرعة الكتابة والقراءة أديباً بارعاً ، قرأ الكتب الكبيرة مثل معجم الطبراني

الكبير ، ومستخرج أبي نعيم ، وقال عنه الصلاح الصفدي في معجمه ما رأيت بعد ابن سيد الناس من يقرأ أسرع منه ولا أفصح ، وما سألته عن شئ من تراجم الناس ووفياتهم وأعمارهم وتصانيفهم إلا وجدته يعلمه ، وكان يستحضر من الشعر القديم والحديث جملة كثيرة وهو معدود من الحفاظ ولو عمّر لكان من أعجوبة الزمان.

هذا وامتد الأمر ليس فقط لأولاد الناس بل تجاوزهم إلى الأحفاد وأولاد الأحفاد الذين نهجوا سبيل العلم محبة ورغبة في طلب العلم الشرعي والتفقه في أمور الدين ، نذكر منهم ممن استطعنا إدراكهم في المصادر المملوكية ، ناصر الدين محمد بن أمير حاج بن أحمد بن آل ملك ، واشتهر باسم قُوزي ، وهو من بيت إمرة ورياسة ونشأ في بيت صلاح فجده أحمد بن آل ملك الذي ترك الإمرة وجاور بمكة وصار من الزاهدين ، تتلمذ ناصر الدين محمد على يد كبار العلماء فختم الصحيح على الصلاح الزفتاوي وابن الشحنة وحفظ القرآن الكريم وحدث وقد سمعه السخاوي وهو يحدث توفي عام ٨٥٥هـ/١٤٥١م وكانت جنازته حافلة.

ومن عائلة الشرف البكتمري كان كل من أحمد وعبد الرحمن أبناء محمد بن يُونس بن محمد بن عمر بن الشرف البكتمري من طلاب العلم وجدهما لأمهما كان الزين قاسم بن قطلو بغا الحنفي ، وسمعا من أم هانئ جدة أبيهما ، وحضر عبد الرحمن على السخاوي دروسه في الصرغمتشية وذلك في حوالي عام ٨٩٠هـ/١٤٨٥م. ومن أحفاد الأمير أزبك من طخ الشيخ الفاضل جمال الدين يُوسف بن محي الدين بن الأمير أزبك الجركسي الحنفي ، قرأ شرحي الشيخ خالد على الأجرومية ، والقواعد الالفية على ابن طولون ، وكتبت له إجازة ، وأخذ الفقه على الشيخ قطب الدين بن سلطان ، ثم رحل إلى مصر حيث يدرك نصيبه في أوقاف جدة ، ومات بها ودفن بمقربة جدة صاحب الأزبكية.

الفقهاء والحياة الدينية

عرضنا فيما سبق لأولاد الناس من طلبة العلم ورأينا أنهم حرصوا على تلقي العلم وخاصة العلوم الإسلامية ، وهؤلاء خرج منهم كثير من الفقهاء والذين صنفهم أصحاب كتب التراجم بأنهم فقهاء وأئمة عصرهم وحفاظ زمانهم ، وبالبحث توصلنا إلى الكثير منهم الذين تركوا للمكتبة الإسلامية مصنفات إسلامية تعد اليوم أصولا ومصادر أساسية أمام الباحثين ، وهي في نفس الوقت شاهدة على ما وصل إليه هؤلاء أولاد الناس من درجة عالية في التفقه في علوم الدين المتنوعة وصنوفه الكثيرة ، وأيضا وجد العديد منهم من تقلدوا التدريس والإفتاء في المعاهد العلمية المختلفة في ذلك العصر والممثلة في مدارس العصر المملوكي بمصر وبلاد الشام.

وإتماما للفائدة نسوق طرفا من أخبار هؤلاء الفقهاء الذين أثروا الحياة الدينية في العصر المملوكي بكثير من المصنفات الإسلامية ، وشكلوا قيمة ثقافية عالية في تلك الحقبة الهامة من تاريخ مصر المملوكية.

الشيخ الإمام العالم شهاب الدين أحمد بن كُنْدغُدي الفقيه الحنفي ذكره ابن حجر "بأنه أحد الفضلاء المهرة من الحنفية اشتغل في عدة علوم وفاق فيها" والسخاوي بقوله "نزيل الحسينية كان عالما فقيها دينا ينزى بزي الجند" وممن تفقه على يديه ابن حجر العسقلاني أخذ عنه فوائده ، ومجد الدين بن مكانس المقامات حيث كان يجيد تقريرها توفي عام ٨٠٧هـ/١٤٠٤م.

العالم الفاضل ناصر الدين محمد بن خاص بك التركي الحنفي وهو جد الخاص بكية الموجودين على عهد ابن إياس وصف بأنه أحد الفضلاء المتميزين ، أكثر من الإشتغال بالفقه والحديث ، وكتب كثيرا وجمع ودرس ، حتى صار علاّمة في علوم الحنفية ، وتصدى للإفتاء والتدريس مدة ، وانتفع به الطلبة مع وجاهته عند الأكابر من الأمراء وغيرهم أثنى عليه المقريزي فقال: أحد أعيان الحنفية ومقدمي المماليك السلطانية ، ومن أساتذته الشيخ أكمل الدين الحنفي ، وكان قانعا بما يتحصل من إقطاعه زاهداً في الدنيا وقد توفي عام ٨١٣هـ/١٤١٠م.

الإمام العالم زين الدين أبو العدل قاسم بن قطلو بغا السودوني ، نزيل الأشرفية وأحد صوفيتها ، واشتهر بقاسم الحنفي ، كان محباً لطلب العلم والإستذادة منه فأخذ القرآن الكريم على شمس الدين محمد بن أحمد الزراتيني إمام البرقوقية ، والتفسير على علاء الدين محمد بن محمد البخاري الحنفي ، وعلم الحديث عن تاج الدين أحمد بن محمد النعماني والحافظ ابن حجر العسقلاني ، والفقه عن سراج الدين عمر بن علي بن فارس المعروف بقارئ الهداية ، ومجد الدين إسماعيل الزمزمي المعروف بالمجد الرومي ، ونظام الدين يحي بن يوسف السيرامي ، وعز الدين بن عبد السلام القيلوي ودرس أصول الفقه على العلاء البخاري ، والسراج قارئ الهداية وشرف الدين السبكي وسعد الدين الديري ، وأخذ علم الفرائض والميقات عن ناصر الدين البارنباري ، وكان من جملة أساتذته ابن الهمام وتقي الدين أحمد بن علي المقريزي المؤرخ ، وحسين بن علي المالكي البوصيري ، وناصر الدين محمد بن حسن المعروف بابن الفاقوسي وغيرهم ، ودرس طرفا من كتب الأدب والشعر وأجازه بعض أساتذته وهو في مقتبل العمر ، وأذن له مشايخه بالإفتاء والتدريس ، وقد أثنى عليه بعض علماء عصره فذكره ابن الديري بالشيخ العالم الذكي ، وابن حجر بالإمام العلامة والمحدث الفقيه الحافظ ، وكان قد قرأ على ابن حجر كتابه الإيثار بمعرفة رواة الآثار ، وذكره البقاعي وهو أحد تلامذته ،كان فريداً في علوم كثيرة في الفقه والأصول والحديث وغيرها أما الإمام السخاوي فقال عنه "هو إمام علامة قوي المشاركة في فنون ، ذاكر الكثير من الأدب ومتعلقاته" صحبه السخاوي وسمع منه وكتب عنه ، وكان من أمثل تلامذته وكانت بينهما مودة.

هذا وقد حصر محقق كتابه تاج التراجم مؤلفات الشيخ قاسم فبلغت نحوا من مئة وثلاثة مصنف في كثير من العلوم ما بين المفقود والمخطوط والمطبوع ومن أشعاره التي رد فيها على المتطاولين على المذهب الحنفي ردا على من قال: ومن الفقهاء أولاد الناس الذين قلدوا مناصب قضائية وجلسوا للإفتاء والتدريس في مصر وغيرها من حواضر الدولة المملوكية المختلفة جملة كثيرة غير ما ذكرنا من فقهائهم ، وإن كان هؤلاء قد قاموا بالتدريس في أكثر من مدرسة خلال العصر المملوكي ، فمنهم من يأتي.

علاء الدين علي بن بلبان الفارسي الحنفي من شيوخه الدمياطي ، ومحمد بن علي بن مساعد ، وبهاء الدين بن عساكر ، وتفقه على الفخر بن التركماني ، وكان مصاحباً لأرغون النائب ، إلى أن عظمت منزلته في دولة الظاهر بيبرس وقام بشرح الجامع للخلاطي ، ورتب صحيح بن حيان ، ومعجم الطبراني الكبير ، وقد كلفه بذلك القطب الحلبي ، وعين مرة للقضاء لما يتصف به من سكون وعلم مع شدة عفاف.

الفقيه الفاضل برهان الدين إبراهيم بن لاجين بن عبد الله الرشيدي برع في القراءات وتتلمذ فيها على يد الشيخ تقي الدين بن الصائغ وأخذ الفقه عن علم الدين العراقي والأصول على تاج الدين البارنباري ، وكان حفظ الكثير من الكتب مثل الحاوي والجزولية وعرف طرفاً من الطب والحساب وصنف الخطب وله نظم غير مشهور ، وكان مشهور بالصلاح والتواضع ، واستمر خطيب جامع أمير حسين بحكر جوهر النوبي خارج القاهرة ، عرض عليه عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م قضاء المدينة المنورة والخطبة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فامتنع ولم يوافق بعدما اجتمع مع السلطان وولاه ، وظل بالقاهرة إلى أن توفي بها في عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م.

ومن الفقهاء الذين قاموا بتولي التدريس الشيخ عمر بن بلبان بن عبد الله الجوزي والذي اشتهر بحسن الخُلُقْ والْخَلْقِ فقيها فاضلا وأديب المعي له نظم ومعرفة بالعربية ، تنازل له المزّي عن مشيخة المعزية وأيضا الشيخ الحافظ الفقيه صلاح الدين خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي الدمشقي الشافعي تلقى العلم وبرع في الفقه والحديث وقرأ بنفسه وصار له يد طولى في فن الحديث وذكره جمال الدين بن الأسنوي في طبقاته وقال عنه كان حافظ عصره إماما في الفقه والأصول ، عاش في القدس وجلس للفتياء والتدريس تولى دروس الصلاحية وظل بها فترة ، وله مصنفات منها كتاب النظائر الفقهية توفي عام ٧٦١هـ/١٣٥٦م أما الحافظ علاء الدين بن مغلطاي بن قليج بن عبد الله البكجري ، إمام وفقيه وحافظ عصره والذي تلقى العلوم الشرعية عن ابن عمر الكردي والعراقي وتولى مشيخة الحديث بالمظفرية ، والبيبرسية ومدرسة أبي خليقة والصرغمتشية والناصرية ، وميعاد آقسنقر الناصري ، وصنف الكثير من التصانيف منها شرح البخاري في نحو من عشرين مجلد وإكمال تهذيب الكمال في ثلاثة عشر مجلداً ، وكتب في المؤتلف والمختلف وشرح بعض من سنن ابن ماجه ، وكتب في السيرة النبوية مؤلفه الذي أسماه "الزهر الباسم في سيرة نبينا أبي القاسم" وتوفي عام ٧٦٢هـ/١٣٦٠م.

وشهد العصر المملوكي الثاني العديد من أولاد الناس الذين تقلدوا مناصب في مدارس القاهرة منهم مصطفى بن زكريا بن أيدغمش القرماني ، شارك في الفقه والفنون ، درس الفقه الحنفي بالصرغمتشية ، وقرره سودون من زاده في مدرسته ، واستقر بعدها في مشيخة مدفن الأمير قجا السلحدار وتوفي عام ٨٠٩هـ/١٤٠٦م وقام زين الدين أمير حاج بن طنبغا بالتدريس في الجمالية وأصبح إمامها "والمتصدر بها" ، وكان من شيوخه الإمام ابن حجر العسقلاني قرأ عليه البخاري ، وأخذ عن الشمسي بن عمران السبع قراءات إلى آخر سورة (ق) وكان موصوفا بالصلاح والبر توفي عام ٨٣٤هـ/١٤٣٠هـ.

هذا وقد قرر السلطان الأشرف برسباي الشيخ على بن طيبغا بن حاجي بك التركماني الحنفي مدرساً وخطيباً بمدفنة الذي أنشأه بالصحراءوقد توفي عام ٨٣٨هـ/١٤٣٤م أما نظام الدين محمد بن الجيبغا المشهور بالنظام فقد أخذ العلم عن العديد من فقهاء القاهرة ولازم حسن القدسي شيخ الشيخونية إلى أن أجازه شيوخه ومنهم تقي الدين المقريزي ، وناصر الدين الفاقوسي وتصدر للإقراء وحدث بالصحيحين ، واستقر في تدريس الفقه بالجامع الطولوني وأيضا بالحسنية ، وبعد ذلك رفض تولي التدريس لأن تنبك قرا الدوادار الثاني أعطي مشيخة الجانبكية بعد الأمين الأقصرائي لمن هو من أصاغر طلبته وقنع برزقه من إقطاعه ، ولم ينقطع عمن يتردد عليه من الطلبة ، ولم يذكر السخاوي ، تاريخ وفاته مما يدل على أنه كان يعيش حتى ذلك العهد ، وقد قرر الأمير محمود بن العيني عضد الدين محمد بن أركماس اليشبكي في خزن الكتب بمدرسة جده البدر العيني ، وكان عضد الدين ممن تفقه على ابن الديري والزين قاسم بن قطلو بغا ، وعلى الحافظ بن حجر وغيرهم ، وبرع في الفقه والحديث وعلوم الدين "وكان لطيف الذات كثير الأدب".

ولنختتم هذه النخبة من أولاد الناس الذين برزوا في أهم مجالات الحياة الدينية بالعصر المملوكي بالسيفي محمد سيف الدين بن عمر بن قطلو بغا بن الركن البكتمري الحنفي ، عالم فاضل من أسرة وصفت بالعلم وبتخريج جماعة كبيرة من العلماء ،-فوالدته أم هانئ الهرونية- برع في علوم عدة في الفقه والأصول والعربية ، وذكره شيخه ابن همام بقوله محقق الديار المصرية ، حفظ القرآن الكريم وجوده والعمدة والشاطبيتين وألفية ابن مالك ، وأخذ الفقه عن التقي ابن عبد الباري وسمع من ابن حجر العسقلاني ، وناب عن أستاذه ابن همام في مشيخة الشيخونية عند حجه ، وتولى مشيخة الجامع المؤيدي ، وراجع السخاوي في كثير من المسائل ، وأخذ عنه الجلال السيوطي وغيره ، وقد رثاه السيوطي بأبيات شعرية بدأها بقوله:

مات سيف الدين منفردا وغدا في اللحد منغمدا
عالم الدنيا وصالحها لم تزل أحواله رَشدا
ناصر دين النبي إذا ما أتاه ملحدا كمدا

ولم يقتصر دور أولاد الناس في الحياة الدينية على ما قدمناه فقط بل ظهر منهم من برع في قراءة وتلاوة القرآن الكريم بالقراءات السبع ، وممن اشتهر بالقراءات وأجاد التلاوة شمس الدين محمد بن صارم الدين قايماز الدمشقي ، تلا بالسبع على جملة من الشيوخ ، "وكان خيراً متواضعاً حسن السمت" توفي عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م وفي العصر المملوكي الثاني ذكر من أحفاد الامير ركن الدين بيبرس الحاجب الأمير أمير علي بن شهاب الدين بن بيبرس الحاجب قرأ بالسبع قراءات على والده شهاب الدين أحمد "وكان حسن الأداء طري النغمة" وقد لقبه ابن إياس بالمقرئ ، أَمَّ الناس هو ووالده بخانقاة سعيد السعداء في قيام رمضان فترة من الزمان توفي عام ٨٠١هـ/١٣٩٨م وقد تقدم به السن واشتغل لشهاب أحمد بن نوكار بالتجويد وبرع وحظي عند الظاهر جقمق حتى أعطاه نظر جامعة وصحب في آخر حياته الجلال السيوطي وأخذ عنه كثير من الفنون.

ومن المعروف أن غالبية المماليك كانوا على المذهب الحنفي الأمراء والفقهاء والعلماء ، ودائما ما كانوا يُنسبون في ترجماتهم إلى مذهبهم الحنفي ولكن برز منهم عدد من أولاد الناس تفقهوا على المذاهب السنية الأخرى ، ونخص منهم العلماء والفقهاء ، وبالرغم من قلة عدد هؤلاء الذين تركوا المذهب الحنفي إلى غيره ، إلا أننا آثرنا تتبع سير بعضهم لإدراك مدى ما وصل إليه أولاد الناس من الإطلاع على كافة المذاهب السنية التي كانت تدرس في أروقة المعاهد العلمية المملوكية وأهمها الأزهر الشريف والمدارس الأخرى ، وأنهم لم يتقيدوا بمذهب آبائهم ويغلقوا فهمهم عليه بل آثروا التعرف على المذاهب الأخري فتحول العديد منهم إلى الشافعي والحنبلي والمالكي.

فمن الأمراء أولاد الناس شهاب الدين أحمد بن بيلك المحسني والي دمياط وكان أديباً شافعياً "ونَظَمَ التنبيه على روي الشاطبية فجاء قصيدة بديعة" وكان يعرض ما ينظمه أول بأول على الشيخ تقي الدين السبكي صاحب طبقات الشافعية إلى أن كمل النظم وكان الأمير ناصر

الدين محمد بن أرغون المارداني عالماً بارعاً في العلوم على المذهب الشافعي.

ومن أولاد الناس شافعية المذهب أيضا أبو سعيد صلاح الدين بن كيكلدي الشافعي كان فقيها شافعيا حافظا ذكره المقريزي بقوله" إنه لم يخلف بعده في الحديث مثله" ومن مصنفاته في فقه الشافعي "المجموع المذهَّب في قواعد المذهب" وكذلك صنف كتاب "الأربعين في أعمال المتقين" وكان برهان الدين إبراهيم بن لاجين من أعيان الفقهاء الشافعية وتوفي عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م.

وممن تحول من الحنفية إلى الشافعية جمال الدين ابن الشيخ الفقيه علي بن بلبان الفارسي تفقه على مذهب والده الحنفي ثم تحول شافعياً وقد تألم والده كثيراً لذلك ، واعتُبرَ والده من أعيان الحنفية في زمنه وأيضا الشهاب أحمد بن تاني بك وقد تتلمذ على عدد كبير من الحفاظ في زمانه ذكر ذلك بنفسه للسخاوي. ونرى أيضا بعض أحفاد أحفاد أولاد الناس تفقهوا على المذهب الشافعي منهم زين الدين عبد اللطيف بن أبي بكر بن عبد القادر بن أبي بكر بن إبراهيم بن منجك نائب الشام "كان شافعي المذهب حسن الاعتقاد".

ومن المذاهب السنية الأخرى التي تفقه عليها أولاد الناس المذهب الحنبلي ، فقد كان الأمير محمد بن جنكلي بن محمد بن البابا حنفيا ثم تحول حنبلياً ، وحدث واشتغل في عدة فنون وكتب بخطه أبيات من نظمه منها:

بك استجار الحنبلي محمد بن جنكلي
فاغفر ذنوبه فأنت ذو التفضل

فقد كان له ذوق وفهم جيد في الأدب والشعر ، وكان كثير البر والإيثار لأهل العلم.

وقد وجدنا أسرة من أسر أولاد الناس قد جمعت بين جنباتها عدداً من المذاهب السنية ، وهي اسرة حسام الدين محمد بن ركن الدين عمر بن قطلو بغا البكتمري ، فكان حسام الدين محمد حنفي المذهب وزوجه أم هانئ الهورنية سبطة القاضي الشافعي فخر الدين محمد بن محمد القاياتي شافعية المذهب وأخذت عن جدها وأبيها ، وقد انجبت للحسام محمد بن عمر بن قطلو بغا أولاداً هم شجاع الدين محمد الشافعي وشرف الدين يونس مالكي ، ومنصور حنبلي ، وبرز منهم الشيخ محمد بن محمد بن عمر بن قطلو بغا الحنفي وكان من علماء عصره ومن أعيان فقهاء الحنفية وذكرنا طرفا من سيرته في فقهاء أولاد الناس.

العلماء والحياة الثقافية

ازدهرت الحركة العلمية في مصر خلال عصر سلاطين المماليك ، وأصبحت البلاد بؤرة النشاط العلمي يفد إليها من كافة أنحاء البلاد الإسلامية ، ويرجع السبب في ذلك إلى ما أصاب بغداد على أيدي المغول ، وما حدث للمدن الإسلامية في الأندلس من تخريب وتشريد لأهلها ، وأيضا ما عاناه أهل الشام من تعدي المغول والصليبيين وعدم استقرار بلادهم ، فلم يجد علماء الشرق والغرب إلا مصر بلداً آمناً مستقراً ، وأصبحت داراً لإحياء الخلافة العباسية ، فوفدوا عليها جماعات وأرسالاً ، وقد حرص سلاطين مصر على رعاية العلماء وتشجيعهم فكان لذلك أبلغ الأثر في ازدهار الحياة العلمية في مصر.

وقد شارك أولاد الناس في بعض هذه المعارف والفنون فكان منهم علماء للعربية والأدب والشعر والتاريخ وغيرها من علوم المعارف العامة ، نحاول إلقاء الضوء على مشاركاتهم في إذكاء الحركة العلمية في مصر خلال العصر المملوكي.

ففي علوم العربية والأدب برز من أولاد الناس من الذين صنفوا وكتبوا الشعر والنثر ، وإن كان يؤخذ على الأدب والشعر بعض الضعف الذي اعتراه نتيجة للاختلاط بالأعاجم من ترك ومغول وأرمن وغيرهم ، ودخول كثير من الألفاظ العامية في التصنيف والكتابة ، وأصبح بجانب الفصحى بعض التراكيب الغريبة على أذن المستمع العربي.

ومن هؤلاء العلماء الإمام صلاح الدين خليل بن الأمير عز الدين أيبك بن عبد الله الألبكي المعروف بالشيخ صلاح الدين الصفدي ، وكان "إماماً بارعاً كاتباً ناثراً شاعراً" برع وساد في الرسائل والنظم والنثر "وكتب الخط المنسوب" أي الفائق الجودة ، ولي عدة وظائف في الإدارة المملوكية منها كتابه بيت المال بدمشق وكتابه الإنشاء بها وبالديار المصرية ، ثم كتابه السر بحلب وباشر وظائف جليلة ، وكان بينه وبين علماء عصره مكاتبات ومراسلات مثل الحافظ أبي الفتح ابن سيد الناس ، وجمال الدين بن نباته المصري ، والشيخ زين الدين عمر بن الوردي وغيرهم ومن مصنفاته التي ذكرها أبو المحاسن كتاب جنان الجناس ، وفض الختام عن التورية ، والاستخدام والمماراة والمجاراة في مجلدين ، نصرة الثائر على المثل السائر ، وخلوة المحاضرة في جلوة المذاكرة ، وجر الذيل في أوصاف الخيل ، وكتاب نكت الهميان في نكت العميان ، وأهم ما كتب كتاب الوافي بالوفيات ، وكتاب أعيان العصر في أعوان النصر ، وقد عدد أبو المحاسن من تصانيفه ما يقرب من اثنين وثلاثين مصنفا ، وقال "إن له تصانيف غير ذلك".

ومن نظمه في زيادة النيل:

زادت أصابع نيلنا وطمت فأكمدت الأعادي
وأتت بكل جميلة ما ذي أصابع ذي أيادي

وكان مولده بمصر المحروسة عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م في زقاق القناديل. وكانت وفاته بدمشق عام ٧٦٤هـ/١٣٦٢م ودفن بالصوفية.

ومن علماء العربية الذين صنفوا في العربية الإمام العالم العلامة زين الدين عمر بن الأمير سيف الدين قُدَيْد القلمطاوي ، كان إمام عصره في النحو والعربية والتصريف ، وله مشاركات في فنون أخرى كثيرة ، وكان حريصاً على ارتداء زي الأجناد ولا يتعاظم في احواله ، وقد توفي بمكة المكرمة في مجاورته للبيت العظيم عام ٨٥٦هـ/١٤٥٢م "ولم يخلف بعده مثله في علم العربية والتصريف"

واشتهر في علوم العربية ناصر الدين محمد بن قرقماش الأقتمري من أعيان الحنفية ، أخذ عن كثير من شيوخ عصره منهم العز عبد السلام البغدادي ، وصنف في الأدب ونظم الشعر فمن مصنفاته كتاب "زهر الربيع في شواهد البديع" وله "الجمان على القرآن" ، وكتب بخطه كتب كثيرة ، وكان ملازماً للكتابة ، وأكثر رزقه منها ، وكان يكتب بالليل على ضوء القمر وقد نظم شعراً في الإمام شهاب الدين ابن حجر عندما تولى قضاء الشافعية قال فيه:

إن كنت خنتك في الهوى فجحدت من قاضي القضاة نواله المبذولا
وجعلت في علم الحديث نظيره من يجهل المعقول والمنقولا

وله في ابن حجر أيضا:

يا حبذا النيل المبارك جارياً بمصر كجري الفضل من علمائها
وإلا كجود العسقلاني من غدا شهابا لذي العليا بأفق سمائها

وله كثير من النظم الرقيق العذب كقوله:

إذا مَنَّ مَنْ تهوى عليك بنظرة أماط الجوى من نار قلبك والبلوى
فكن شاربا صبرا لمُرِّ صدوده فما ذاق من الوصل مَنْ هم بالسلوى

وكان يتزيا بزي الجند من أولاد الناس ذي شكل نضر بهيج وسكينة ووقار ، محبا للفقراء ، واعتقاد حسن بل كان الناس يتردون عليه للزيارة توفي عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م.

ومن الشعراء أولاد الناس الذين ذاع صيتهم العلاء علي بن سودون اليشبغاوي الحنفي درس كثير من العلوم بعد حفظه للقرآن الكريم بالشيخونية فأخذ الفقه عن سعد الدين بن الديري ، وعلم الميقات من ابن المجدي والعروض على الجلال الحصني ، ثم شارك مشاركة جيدة في فنون كثيرة ، وأمَّ ببعض المساجد ، وصنف في الأدب وبرع فيه ونظم الكثير ومن نظمه في فتح خوخة الجسر في فيضان النيل:

ذلك البشارة باب الجسر قد فتحا وطائر البشر في أغصانه صدحا
وجاءنا فرج من بعد آيسة وعن جرائمنا سلطاننا صفحا

وعرف ايضا خير الدين محمد بن قرابُغا العلائي بقرض الشعر ، وامتهان الأدب ووصف بالإمام العلامة العالم الأديب البارع وورد من نظمه:

يا غزالا ليس لي عنه اصطبارا لا ولم يسل فؤادي عنه غادة
بحر صبري مذ تنافرت ووجدي ذا وهذا في احتراق وزيادة

وكان ناصر الدين محمد بن قانصوه من صادق من الشعراء المجيدين ، وقد وصفه ابن إياس في أكثر من موضع بكتابه بالأديب البارع واستشهد بكثير من أشعاره في وصف وقائع معينة كتب فيها ناصر الدين محمد بعض النظم الذي يصف أحوال الواقعة ، فكان منها في وصف المصادرات التي قام السلطان الغوري بها ضد أولاد الناس وإخراج إقطاعاتهم منهم فقال:

أيا بني الأتراك أرزاقكم ما قطعت إلا لأمر عجيب
لا تضجروا من قطعها واصبروا ستكشف الغُمّة عنكم قريب
لا تضجروا ترجعُ فادعوا بنا في السر والجهر السميع المجيب
واحتسبوا من رموا سهام الدعاء فكل سهم حيث يُرقي مصيب

وله في نهر النيل السعيد:

اضمُرْ على النيل فانظر ما تُسرُّ به إذا ضَمَرت فما في الفال إشكال
لنالك الماء رملٌ والنسيم به مُبدي ضميرك والتجعيد أشكال

وله أيضا في النيل عندما فتح السد ليلاً, وأصبح الناس يرون المياه في الخلجان والبرك وفُوتَ على الناس فرحتهم بكسر الخليج وفتح السد.

منذ للسلطان قالوا للورى بالكسر جبر
كسر السد بليل فغدا للناس كسر

وله قصيدة كاملة يشرح فيها نسب الجراكسة وأن أصلهم من العرب المنازرة من نسل جبلة بن الأيهم, وسموا بذلك نسبة لجركساء جبلة بن الأيهم, جاء في أولها:

حبذا من زانه أدب وله من جركس نسب
جركسي قانصوه أبي نسل سلطان كسا نسب
جركس نسل الملوك وما عزهم في مصر مكتسب
أيهم المذكور جدّهم مَن إلى غسان ينتسب
هذه بالحق نسبتهم وبصدقي تشهد الكتب

إلى آخر القصيدة التي ذكرها ابن إياس كاملة ودلل فيها ناصر الدين محمد بن قانصوه من صادق على الأصل العربي المزعوم للجراكسة.

ومن الشعراء أولاد الناس من اتصف شعرهم بالمجون والخلاعة منهم أبو بكر بن عبد الله بن قطلو بك شاعر ومنجم, وكان بارعاً في نظم الشعر الماجن, وله مطارحات مع أدباء عصره, وقد اشتهر بخفة الروح والنوادر المطربة, ومن نظمه:

حنفي مدرس حاز خدًا كرياض الشقيق في التنميق
لو رآه النعمان في مجلس الدرس لقال النعمان هذا شقيقي

ويعد شهاب الدين أحمد بن قرطاي المعروف بابن بكتمر من الذين عنوا بالشعر والشعراء وكان يقتني الكتب النفيسة بالخطوط المنسوبة الفائقة الجودة ذات الجلود وصفه أبو المحاسن بقوله "كان فاضلاً أديباً شاعراً لطيفاً ذا محاضرة حسنة" وساق صاحب المنهل العديد من أشعاره, ومنها فيمن اسمه إبراهيم.

إن إبراهيم أروى في الحشا منه ضراما
ليت قلبي يلقاه نال برداً وسلاماً

ومن شعراء العصر المملوكي الثاني علاء الدين علي بن خليل بن حسن بن خاص بك, كان من أعيان أحفاد أولاد الناس, اشتهر بنظمه الشعر وطلب العلم ، وكان على بن بيبرس من أولاد الناس الذين يهتمون كثيراً باستحضار أشعار المتقدمين والمتأخرين وكذلك مدارسة التواريخ والموانع وكان له فصاحة في التمثيل بالشعر والاستحضار بالبيت النادر.

وكان أيضا من أولاد الناس من له شغف بجمع القصائد والمدائح النبوية على صاحبها الصلاة والسلام ، فقد كان عند الأمير علاء الدين علي ابن أمير حاجب والي مصر (الفسطاط) خمسة وسبعون مجلداً كلها مدائح نبوية وجدت في تركته عندما توفي عام ٧٣٩هـ/١٣٣٨م.

وكان بعض أولاد الناس يجيدون النسخ والكتابة منهم بدر الدين محمد بن بكتوت القرندلي الذي اشتهر بالنسخ والكتابة ، وكتب على ابن خطيب بعلبك ونسخ من المصاحف ، وكتب كثير من تصانيف العلم المختلفة ، وكان من إتقانه لصنعته يضع المحبرة في يده الشمال والمجلد على يده ويكتب وهو يغني وكان شرف الدين غازي ابن قطلو بغا التركي كاتباً مجوداً جوّد الخط على شمس الدين ابن رقيبه المحتسب ثم نبغ وخالف شيخه في طريقته واخترع لنفسه طريقة أخرى ، وكان يجلس بالمدرسة الظاهرية بيبرس ليكتب للناس احتسابا واعتبر كذلك ناصر الدين محمد بن أزبك البدري الخازنداري ممن كتب الخط وجود فيه وأصبح من مشاهير النساخ ، وقد نسخ تفسير الفخر الرازي مرتين.

على أن أبرز العلوم في عصر سلاطين المماليك كان بحق علم التاريخ حيث ظهر من بين علمائه عدد لا بأس به من اولاد الناس تركوا لنا تراثا ضخما ننهل من فيضه إلى وقتنا الحاضر بل أن جزءا كبيرا من المادة العلمية لهذه الدراسة هي من بين ثنايا ما كتب أولاد الناس مؤرخو عصر دولة سلاطين المماليك.

وأهم ما ميز المدرسة التاريخية في مصر والتي بدأت تتبلور في نهايات القرن الثامن لتصبح في أوج ازدهارها طوال القرن التاسع الهجري هو المؤرخون الذين اهتموا بكتابة التاريخ والتصنيف فيه هؤلاء ولدوا وعاشوا وتربوا في خيرها ، وإن كان منهم من ليس من اصل مصري مثل أولاد الناس من المؤرخين إلا أنهم أصبحوا مصريين

بالمولد والتربية والنشأة ، ولا يمكن أن نميز بينهم وبين المصريين الأصل ، فقد اخذ هؤلاء المؤرخون من أولاد الناس العلم والتاريخ عن أساتذة لهم على رأسهم تقي الدين المقريزي والبدر العيني ، والحافظ ابن حجر العسقلاني ، بل كان منهم من هو ملازم لهؤلاء ، وإن كان تقي الدين المقريزي قد اعتبر أستاذ المدرسة التاريخية الجليلة التي نشأت في مصر ، فإن بعض أولاد الناس قد قاموا بتدوين التاريخ قبل عهد المقريزي ، وأتت مصنفاتهم على قدر جيد من الكتابة والعرض لأحداث الفترات التي عاشوا فيها.

ومن أولاد الناس الذين صنفوا في علم التاريخ أبو بكر عبد الله بن الامير عز الدين أيبك الخطائي الدوادار فقد صنف ابن أيبك كتابه كنز الدرر وجامع الغرر أو المسمى الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية ، وهو من تسعة أجزاء ويشمل تاريخ الدولة المملوكية. وصارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر بن دقماق ، وكان جده لابيه أحد أمراء الناصر محمد بن قلاوون وتنقل في وظائف الدولة المملوكية إلى أن ولي نقابة الجيوش المنصورة ونشأ صارم الدين في فئة أولاد الناس وتزيا بزي الجند وتفقه كغالب أولاد المماليك على المذهب الحنفي ، وأحب الأدب واشتغل به ، ثم حبب إليه التاريخ فانكب عليه حتى كتب نحواً من مئتي سفر من تأليفه ، وقد وصفه ابن حجر العسقلاني بمؤرخ الديار المصرية في وقته وكان ابن حجر قد اجتمع به كثيرا ونقل عنه. وقد نقل عن ابن دقماق من مؤرخي مصر مثل ابن الفرات والمقريزي وابن حجر وبدر الدين العيني والإمام السيوطي وغيرهم.

وبالرغم من أن غرس الدين خليل بن شاهين الصفوي كان من رجال الدولة وتقلد الكثير من الوظائف الديوانية السلطانية وتنقل فيها إلا أنه قد شارك مشاركة فاعلة في الحركة العلمية بمصر المملوكية ، واعتبر أحد أولاد الناس الذين اهتموا بالعلم ودراسته والتفقه الصحيح على أعلام عصره من العلماء ، وقد أجازه الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني للفتيا والتدريس وكانت بينهما علاقة طيبة ومراسلات كثيرة عندما يكون الغرسي خليل متقلداً الوظائف في خارج مصر ثم بدأ في التأليف والتصنيف والنظم ، ومن مصنفاته التاريخية زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك وله أكثر من ثلاثين مؤلف —كما ذكر ذلك ابنه للسخاوي —في التفسير والتعبير والإنشاء وغيرها ، وذكر له المواهب في اختلاف المذاهب في الفقه ، والمنيف في الإنشاء الشريف ، والكوكب المنير في أصول التعبير ، والإشارات في علم العبارات ويعتبر كتابه زبدة كشف الممالك من أهم كتاباته ، توفي الغرسي خليل عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م.

ومن أعلام علماء علم التاريخ في القرن التاسع أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي اليشبغاوي ، والذي وقف حياته على التنقيب في مصر الإسلامية حتى أطلق عليه المؤرخون المحدثون اسم مؤرخ مصر ومؤرخ النيل وهو التلميذ النجيب لتقي الدين المقريزي ، ومن أعظم من سار على دربه وأصبح من أساتذة المدرسة المقريزية المشهورين.

وقد تتلمذ أبو المحاسن على أهم علماء عصره مثل الجلال البلقيني الذي رُبي في حجره ، والحافظ بن حجر العسقلاني ، وشهاب الدين ابن عرب شاه وبدر الدين العيني ، وقد صادق تقي الدين المقريزي ولازمه ، واقتبس من مناهجه وأساليبه في البحث والرواية وزاد عليه التعليق برأيه الخاص على ما لا يروق له من أحوال السلاطين المماليك وكانت حياة أبي المحاسن تدور في فلك علاقاته مع رجالات الدولة وكبار رجال البلاط من الامراء المماليك ، واتصاله بالمصاهرة مع أهم علماء عصره ، هذه الحياة التي ساعدته على إطلاق العنان لشغفه بالبحث والدراسة والانقطاع للكتابة التاريخية ، وتعرف الشؤون والنظم الإدارية ، والوقوف على أسرار الدولة والبلاط في عصره وذلك لإجادته اللغة التركية لغة قومه ، فاستطاع أن ينفذ إلى دقائق الدولة السياسية ، وأن يتفهم نفسية وعقلية البلاط المملوكي ، وأن يتعرف على أحوال طوائف المماليك ، ولم لا وهو واحد من أولادهم.

وعلاقة ابن تغري بردي بسلاطين الدولة في هذه الحقبة واتصاله بهم ومعيشته في بلاطهم ، حتى عد في بعض الأوقات من ندمائهم أتاحت له الإطلاع على كثير من الأمور ومعايشة أحداثها وتسجيلها في مصنفاته بمنتهى الدقة ، ويصبح حديثه عنها وثيقة تاريخية في تحليل أحداث تلك الفترة من تاريخ مصر الإسلامية.

وقد قرض أبو المحاسن ابن تغري بردي الشعر ولكنه لم يجود فيه فجاء شعره ضعيفاً نسبياً ، ومن نظمه في سلاطين الدولة المملوكية.

إيبك قطز يعقبو بيبرس ذو الإكمال بعدو قلاوون بعدو كتبغا المفضال
لاجين بيبرس برقوق شيخ ذو الأفضال ططر برسباي جقمق ذو العلا إينال

توفي جمال الدين أبو المحاسن يوسف في عام ٨٧٤هـ/١٤٧٠م بسبب مرض ألم به وقاس فيه آلام شديدة ، ودفن بمقربته التي بناها بالقرب من مدفن الأشرف إينال. هذا وقد أشرنا من قبل للناصري محمد بن أحمد المعروف بابن إياس باعتباره من الذين قرضوا الشعر في الدولة المملوكية ، بيد أن ابن إياس في الأصل من أهم مؤرخي مصر المملوكية الإسلامية بل لقب باسم مؤرخ الفتح العثماني.

نشأ ابن إياس في مدينة القاهرة ومال لدرس التاريخ والجغرافية وكتب وصنف فيهما فمن مؤلفاته "نشق الأزهار في عجائب الأقطار" ، أما أهم ما صنف ابن إياس كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور" ، والذي أرّخ فيه لتاريخ مصر واهتم اهتماماً كبيراً بالفترة الأخيرة من تاريخ الدولة المملوكية منذ عهد الأشرف قايتباي حتى عهد الأشرف طومان باي آخر سلاطين الدولة ، وذلك لأنه يعتبر شاهد عيان رئيسي عايش هذه الأحداث التي رصدها يوما بيوم وخاصة علاقة بني عثمان بسلاطين مصر وتطور العداء بينهم حتى غزوهم للشرق الإسلامي وانتصارهم في مرج دابق ، ثم زحفهم إلى القاهرة ، ومقاومة الأشرف طومان باي لهم إلى أن ظفروا به وشنقوه على باب زويلة ، هذه الأحداث أرخ لها ابن إياس بدقة تامة واعتبر تاريخه وثيقة أساسية يعتمد عليها باحثو تلك الفترة.

ومن أولاد الناس الذين اعتنوا بدراسة علم التاريخ والمطالعة فيه محمد بن بردبك الأشرفي سبط الأشرف إينال كان "ممن اعتنى بمطالعة التاريخ" وأيضا أحمد بن حسين التركماني الحنفي المعروف بالمَرْجي أحد تلامذة أبو المحاسن يوسف وممن نسخ له كتبه وخاصة كتاب النجوم الزاهرة ، وأيضا البدري حسن بن الطولوني "معلم المعلمين كان ريسا حشما من أعيان أولاد الناس" أحب مطالعة التاريخ وكتب تاريخاً في ضبط الوقائع وكان على دراية بكثير من العلوم والفنون. ومن الجدير بالإشارة أن كتاب زيتر شتين الذي أُطلِقَ عليه "سلاطين المماليك" نسبه بعض المحدثين لمؤلفه إبراهيم بن مغلطاي وهو أحد أولاد الناس المعاصرين للسلطان الناصر محمد بن قلاوون.

ومن أحفاد أولاد الناس الذين صنفوا في التاريخ محمد بن محمد بن محمد بن بهادر المؤمني ، تلقى تعليمه بالقاهرة وعاش بها إلى أن توفي ، وصنف عدة كتب منها "فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر" ، كتب فيه حوادث تاريخ ملوك مصر حتى عام ٧٥١هـ/١٣٥٠م ، وكتب رسالة في ترجمة شيخه "جلال الدين المحلي"وكتاب "مجموعة تواريخ التركمانية".

واهتم أولاد الناس بدراسة علوم أخرى غير التي ذكرنا منها علم الحساب والرياضيات ، فكان الأمير عماد الدين إسماعيل بن الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ممن عنوا بدراسة هذا العلم ، وكان فطنا أعطى أمره في عهد ابن عمه الأشرف شعبان أما من برع في الحساب والهيأة والجبر والمقابلة حتى عد من علماء علم الفلك شهاب الدين علي بن طيبغا واعتبر جمال الدين إبراهيم بن أيبك الصفدي من أعلام علم الحساب ، "وكان ذهنه في الرياضي جيداً ، واشتغل أحمد بن محمد بن عبد الله البكتمري بعلم الميقات وكان ماهراً في فنه.

ودرس الناصري محمد بن قرقماش الحنفي علم الكيمياء ، وكان عالما فاضلا أما الناصري محمد بن منكلي فقد برع في علوم الملاحة وفن القتال الحربي ، وصنف عدة مؤلفات في هذا المجال منها "الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية في فن قتال البحر" وكتاب "التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية" "والخيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب" وكتاب "الأدلة الرسمية في التعابي الحربية" ووقد توفي في عام ٧٧٨هـ/١٣٧٧م ، ومن أولاد الناس كذلك الذين برعوا في فنون الفروسية محمد بن لاجين بن عبد الله الحسامي المعروف بالرماح صنف عدة كتب منها "بغية القاصدين في العمل بالميادين" في الفروسية ، وغاية المقصود في العلم والعمل بالبنود ، وكتاب الرماح وتوفي تقريبا عام ٧٨٠هـ/١٣٧٩م.

ولايتهم للوظائف الدينية

جاءت الوظائف الدينية في دولة المماليك من الولايات الهامة التي تدخل في نطاق الضرب الثاني من الوظائف الديوانية التي يتولاها أعيان المملكة وأرباب المناصب من حملة الأقلام والذين قسموا إلى قسمين أرباب الوظائف الديوانية وأرباب الوظائف الدينية.

وقد مُثل أولاد الناس في بعض هذه الوظائف الدينية وإن كان تمثيلهم جاء ضعيفاً وذلك لسبب مباشر وهو أن من يتولى هذه الوظائف يشترط فيه أن يكون من أرباب الأقلام أي العلماء ، بيد أنه أحيانا كان يمكن التحايل على هذا الشرط وخاصة في العصر المملوكي الثاني وعندما أصاب الدولة بعض الخلل الإداري نتيجة لما ساد خلال تلك الفترة من الوصول إلى هذه المناصب عن طريق البذل والبرطلة فوصل الأمراء الأتراك وأولادهم إلى هذه المناصب الدينية وإن كانت القاعدة الأساسية لتولي المنصب ظلت هي السائدة في أغلب العهود المملوكية.

ومن أهم الوظائف الدينية التي تقلدها أولاد الناس من أبناء الأمراء وظيفة الحسبة تولاها محمد بن طقتمر عندما خلع عليه السلطان الأشرف شعبان عام ٧٧٥هـ/١٣٧٣م عوضا عن علاء الدين بن العرب والذي تضرر منه الناس بسبب البراطيل التي كان يأخذها ، ولا يهتم بتسعير البضائع ويعتبر محمد بن طقتمر من أوائل الناس من المماليك الذين تقلدوا هذا المنصب وفي عهد المؤيد شيخ المحمودي تقلد منصب الحسبة في القاهرة صارم الدين إبراهيم بن الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام الصقري الوزير في عهد دولة الظاهر برقوق وكان الصارم إبراهيم تزيا بزي الجند كعادة أولاد الناس ، وكان يحب مجالسة أهل الفضائل ويحب الآداب ويكتب الخط المنسوب المتقن ، توفي في عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م.

وتولى منصب نظر الأوقاف بالديار المصرية شهاب الدين أحمد بن أرغون شاه الذي قلد المنصب في عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩ في عهد الأشرف برسباي وتولى أحمد بن مغلطاي بن عبد الله الشمسي شد الأوقاف وتوفي عام ٧٦٤هت/١٣٦٢م. أما وظيفة قاضي العسكر فلم نعثر إلا على واحد فقط من أولاد الناس الذين قلدوا هذا المنصب وهو صارم الدين إبراهيم بن حاجي ابن شيخ مدفن السلطان برقوق ، وكان حنفي المذهب. وقد تقلد بعض أولاد الناس وظائف أخرى ارتبطت بالمساجد وبالحياة الدينية منها ولاية الأمير جمال الدين عبد الله بن بكتمر الحاجب نظر المشهد النفيسي عليها رضوان الله عوضاً عن الخليفة العباسي عام ٧٦٦هـ/١٣٦٤م.

المنشآت الدينية والعلمية

من المعروف أن مصر شهدت في العصر المملوكي نشاطاً دينياً منقطع النظير كانت له أسبابه المتعددة منها محاولة السلاطين المماليك مواصلة سياسة الأيوبيين في محاربة التشيع ، مما أدى إلى وجود تيار ديني قوي خلال العصر المملوكي ، وهو التيار الذي ظهر بوضوح في إنشاء المساجد والجوامع والخنقاوات والأربطة والأسبلة.

فمن المنشآت الدينية التي أقامها أولاد الناس بالقاهرة المساجد والزوايا وقد أشرنا أن الزاوية في مصر المملوكية حلت تقريبا محل الخانقاة وكانت تبنى للفقراء وأهل السبيل والصوفية الذين يقيمون بها. فمن المساجد التي أقيمت في ذلك الوقت المسجد الذي أنشئ في الجزيرة المستجدة في نهر النيل وأنشأته ابنة الملك الظاهر بيبرس في عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م وعمرت بجواره أملاكا كثيرة.

ومن الأربطة التي أنشئت في عصر سلاطين المماليك رواق البغدادية أنشأته خوند تذكار باي خاتون ابنة الظاهر بيبرس البندقداري في عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م ، وهذا الرباط بني بجوار خانقاة بيبرس الجاشنكير داخل الدرب الأصفر.

ومن الزوايا والخنقاوات ، خانقاة المهمندارية وهي التي أنشأها الأمير شهاب الدين أحمد بن آقوش العزيزي المهمندار نقيب الجيش في عام ٧٢٥هـ/١٣٢٤م ، وزاوية الحمصي والتي أنشأها الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير فخر الدين الطنبغا الحمصي عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م ، وكان أحد الأمراء في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، وقد رتب بهذه الزاوية عشرة فقراء وجعل شيخهم منهم وأوقف عليها بعض القرى في ساحل الشام وأنشأ أيضا ناصر الدين محمد بن قرطاي ابن بنت الأتابكي بكتمر الساقي خانقاة بالقرافة عند حوش الظاهر بيبرس ، وأوقف عليها ربع بعض أوقاف جده والتي آلت إليه عن طريق الميراث.

أما المنشآت العلمية والتي تمثلت في المدارس التي وجدت بكثرة في مصر المملوكية ، وقام الأمراء والسلاطين المماليك بتشييدها ووقف الأوقاف عليها وتعيين المدرسين على المذاهب المختلفة لإلقاء الدروس بها فكان لأولاد الناس نصيب أيضا في هذه القربى إلى الله عز وجل ببناء المدارس ومن الذين عنوا ببناء المدارس الأمير سيف الدين أسَنْبُغَا بن بكتمر الأبوبكري الذي أنشأ المدرسة الأبوبكرية عام ٧٧٢هـ/١٣٧٠م ، وهو من أمراء السلطان الناصر حسن وهذه المدرسة بجوار درب العباسي قريبا من حارة الوزيرية بالقاهرة ، وقفها الأمير سيف الدين على الفقهاء الحنفية ، وبني بجوارها حوض ماء سبيلا

وسـقايةً ومكتبـاً للأيتـام ، وجـددت عمـارة هـذه المدرسـة عـام ٨١٥هـ/١٤١٢م وأنشأ بها منبراً وأقيمت فيها الجمعة.

أما بنـاء الأضـرحة فقـد انتشـر فـي عصـر دولـة المماليـك واهـتم السلاطين والأمراء المماليك وأولادهـم على حد سواء بإنشـاء أضـرحة ومدافن لهم تواري فيها أجسامهم بعد وفاتهم ، ومن الأمثلة على ذلك بنـاء الأمير قانبـاي الجركسـي على ضـريح ابنـه محمـد الـذي تـوفي عـام ٨٤٦هـ/١٤٤٢م "قبة عظيمة ليس لها نظير في مقابر مصر والقاهرة" وكان هـذا المـدفن يخص الأمير جركس المصـارع وقـام المـؤرخ جمـال الدين أبو المحاسن ابن تغري بردي بإنشاء "تربة هائلة بالقرب من تربة إينـال" ووقـف كتبـه وتصانيفه بها وقـام ابـن تغـري بـردي بإنشـاء وثيقـة وقف لهذا المـدفن لضـمان رعايتـه بعـد وفاتـه. وأشـار السـخاوي إلـى أن ابنـة أخـت الأشـرف قايتبـاي والتـي تزوجـت مـن قانبـاي شـلاق بأنهـا "دفنت بتربتها" وكانت وفاتها عام ٨٨١هـ/١٤٨٦م.

وقـد سـاهم أولاد النـاس فـي العمـل علـى رعايـة المنشـآت الدينيـة والعلمية التي اقاموها بتجديدها ، وزيادة أوقافها ، فقد قام الناصر فرج بوقف ناصية إمبابة (منبابة) بالجيزة على المدرسة الظاهرية والتي دفن بها غالب عائلته. كما ساهم أولاد الناس في بناء وتشييد المدارس بمصر فقد ثبت أن الذي شيد مدرسة السلطان الناصر حسن من أولاد الناس وهـو الأميـر محمـد بـن بيلـك المحسـني هـذا الصـرح الهائـل والبنـاء الضخم ، والـذي وصفته كثيـر مـن المصـادر بأنـه مـن أعظـم الأبنيـة فـي دولة الإسلام وقد أجمع على هذا الرأي جميع المؤرخين والرحالة الذين زاروهـا فيـذكر أبـو المحاسـن "أن هـذه المدرسـة ومئـذنتها وقبتهـا مـن عجائب الدنيا ، وهي أحسن بناء بني في الإسلام" وإذا لم يكن محمد ابن بيلـك المحسـني مهندسـاً فـذاً لمـا اسـتطاع بنـاء هـذه المدرسـة ومـا سمح له بوضع اسمه بجانب اسم السلطان.

وبعـد ؛ فقـد تبـين أن لأولاد النـاس مسـاهمات فـي الحيـاة الدينيـة والعلميـة التـي ازدهـرت فـي مصـر خـلال العصـر المملـوكي ، وقـد أدرك أولاد الناس هذه الحقيقة ، فعاشوا في رحابها ينهلون من فيض علمائها المتدفق إلى أن أصبح منهم العلماء والفقهاء الذين أسهموا وشاركوا في ركب مسيرة الحياة العلمية والدينية في مصر الإسلامية المملوكية.

شهد العصـر المملوكي في مصـر والشام تنـوع في طبقـات الشـعب التي كانت تحكم من قبل سلاطين المماليك ، وكان هؤلاء السلاطين وأمراءهم يمثلون الطبقـة الممتازة التـي هي قمـة الهرم السكاني ، وقـد خرجت منهم فئة هي جزء أساسي من نفس طبقتهم هؤلاء هم أولاد الناس. وإن كان أولاد الناس في الأصل ينتمون إلى طبقة المماليك إلا أنهم عاشـوا بـالمجتمع المصـري وتفـاعلوا معـه حتـى أصـبحوا فـي قلـب نسيج هذا الوطن ، وإن كان آباؤهم قد جلبوا من بلاد لا يعرفونها وآباء وأمهات لا يعلمون عنهم شيئًا ، فإن أولادهم ولدوا وعاشوا وتربوا من خير مصر وعلى أرضها وكان لابد أن يترك فيهم أثرا ظاهرا ومسحة من عطائه.

ومن خلال هذه الدراسة تبين أن أولاد الناس لم يمثلوا كمًّا مهملا في المجتمع المصري أو أنهم نشؤوا مدللين في مرتع خصب ينعمون بما ترك لهم آباؤهم من أموال وأوقاف وغير ذلك مما تستقيم معهم أحوالهم الاقتصادية ليصبحوا كالمصطلح الحديث في التعبير(عاطلين بالوراثة) ، بل أدركنا أن أولاد الناس ومنذ بداية ظهورهم كفئة عاملة من فئات المجتمع المصري ، وإن كانت تتبع طبقة المماليك باعتبارهم أبنائهم ،فقد تميز العديد منهم في مجالات شتى.

ففي الحياة السياسية و الإدارية كانوا أعضاء عاملين في السلك السياسي العسكري ،وشغلوا مراتب عالية في الإمرات المملوكية. وقد سـاهم أولاد النـاس فـي الأحـداث السياسـية سـواء فـي الأحـداث والصراعات الداخلية أو في الأحداث الخارجية أو في السفارات الودية بـين السـلطنة المملوكيـة والـدول الإسـلامية المجـاورة لهـا ، أو لإصـلاح مناهـل الحج والضـرب على أيـدي العربـان المفسـدين الذين يتصـدون لركب الحجيج بالترويع والنهب.

ومـن خـلال أوضـاع أولاد النـاس الاقتصـادية وضـحنا كيـف كـان يعـيش هـؤلاء ومـن أيـن كانـت تـأتي مصـادر دخلهـم التـي تمثلـت فـي الإقطاعـات والجوامك والنفقة والأرزاق والأوقاف ، وتعرضهم في كثير مـن العهـود للمصـادرات ، أو تـأثرهم بالأحـداث الداخليـة والفـتن والإضطرابات التي كان تأثيرها يمتد لقطع جوامكهم ورواتبهم.

ومن الممكن القول أن أولاد الناس فى المجتمع المملوكى وضح دورهم السياسى والإقتصادى والاجتماعى والدينى والعلمى وأنهم لم يعيشوا حياة مترفة ونشؤوا مدللين فى "حجور النساء" ، "وحجور أمهاتهم". وليس معنى هذا أن ننحاز لفئة أولاد الناس خاصة وللمماليك بصفة عامة ، ولكن ننظر نظرة موضوعية فاحصة مدققة لتاريخ دولة المماليك وتاريخ هؤلاء أولاد الناس لنرى إن كانوا يستحقون أن تلصق بهم هذه الأوصاف وينعتوا بها ، أو أن مسيرة حياتهم منذ أن بدأت هذه الفئة من طبقة المماليك تظهر فى بدايات القرن السابع الهجرى وحتى زوال دولتهم التى زال معها عزهم ومجدهم وآل أمرهم وأمرها إلى ما يمكن أن يوصف به حال مصر فى تلك الأيام من أبيات قرضها شاعر مصر الشيخ بدر الدين الزيتونى فى زوال دولة المماليك.

نبكى على مصر وسكانها قد خربت أركانها العامرة
وأصبحَتْ بالذل مقهورة من بعد ما كانت هي القاهرة

وعلـى الجملـة يمكـن القـول أن أولاد النـاس بـأمرائهم وعلمـائهم وفقهـائهم وصـالحهم وطالحهم ،قـد كـانوا مصـريين حملـوا مصـر فـي أفئدتهم وولدوا وعاشوا وترعرعوا في ربوعها ، وكونوا مع شعبها نسيجاً واحداً لا يمكن أن ينفصموا عنه بحال من الأحوال حتى ذابوا في هذا المجتمـع المصـري القـادر على أن يضـم فـئات متغـايرة ويحتويهـا بـين جنباته.